

محنته

يقول الله تعالى :

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَجِيرٍ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ (١).

ولقد أخذ بعض المؤرخين يعدُّ أعداء الأنبياء من المجرمين ، ومن الممكن أن يعدَّ الإنسان أعداء أولياء الله من المجرمين أيضاً ؛ وذلك أن كثيراً من الناس قد ملأ الشر قلوبهم ، إلى درجة أنهم لا يتحملون رؤية الأتقياء الأولياء .

ومع أن الله سبحانه يقول في حديث قدسى :

« مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ » .

فإن الكثيرين يعادون أولياء الله لما فى قلوبهم من شر ، ولما فى نفوسهم من حب الإيذاء .

ولقد كان لدى النون أعداء .

إنهم أعداء التسامى فى العلم ، وفى الخلق ، وفى التصوف .

وتكتل هؤلاء الأعداء . . يقول صاحب « الكواكب الدرية » عن

ذى النون :

« ولمّا تكلم بعلوم لدنيّة لا علم لأهل مصر بها ، وشّوا به إلى

خليفة بغداد ، فحمل إليه فى جماعة ، مغلولاً مقيداً ، فقدم للقتل ،

فكلم الخليفة ، فأعجبه ، فأطلقه ورفقته ، وقال :

« إن كان هؤلاء زنادقة فما على وجه الأرض مسلم » .

(١) سورة الفرقان : ٣١ .

ولكن أهل مصر قوم طيبون، فبمجرد أن رأوا ذا النون - وفي يده الغُلُّ وفي رجله القيد - أخذوا يبكون، وإذا بذى النون يعلن :
« هذا من مواهب الله ومن عطاياه، وكل فعالة عذب حسن طيب » .
ثم أخذ ينشد مخاطباً الله سبحانه بشعره :

لَكَ مِنْ قَلْبِي الْمَكَانُ الْمَصُونُ كُلُّ هَمٍّ فَيْكَ يَهُونُ
لَكَ عَزْمٌ بِأَنْ أَكُونَ قَتِيلاً فَيْكَ وَالصَّبْرُ عَنْكَ مَا لَا يَكُونُ

ويقص ذو النون بعض أخبار من هذه المحنة فيقول :
« لما حُمِلْتُ مِنْ مِصْرَ فِي الْحَدِيدِ إِلَى بَغْدَادَ لَقِيتُنِي امْرَأَةً رَمْنَةً ،
فَقَالَتْ : إِذَا دَخَلْتَ عَلَى الْمُتَوَكِّلِ فَلَا تَهَبْهُ ، وَلَا تَرَ أَنَّهُ فَوْقَكَ ، وَلَا
تَحْتَجَّ لِنَفْسِكَ مُحَقَّقًا كُنْتَ أَوْ مَتَّهَمًا ، لِأَنَّكَ إِنْ هَبْتَهُ سَلَّطَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ ،
وَإِنْ حَاجَجْتَ عَنْ نَفْسِكَ لَمْ يَزِدْكَ ذَلِكَ إِلَّا وَبَالًا ، لِأَنَّكَ بَاهَتَ اللَّهُ
فِيهِمَا يَعْلَمُهُ ، وَإِنْ كُنْتَ بَرِيئًا فَادْعُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَنْتَصِرَ لَكَ ، وَلَا تَنْتَصِرْ
لِنَفْسِكَ فَيَكِلَكَ إِلَيْهَا .

فَقُلْتُ لَهَا : سَمِعًا وَطَاعَةً .

فَلَمَّا دَخَلْتُ عَلَى الْمُتَوَكِّلِ سَلَّمْتُ بِالْخُلَافَةِ .

فَقَالَ لِي : مَا تَقُولُ فِيهِمَا قِيلَ فِيكَ مِنَ الْكُفْرِ وَالزُّنْدَقَةِ ؟
.. فَسَكَتُ .

فَقَالَ وَزِيرُهُ : هُوَ حَقِيقٌ عِنْدِي بِمَا قِيلَ فِيهِ .

ثُمَّ قَالَ لِي : لِمَ لَا تَتَكَلَّمُ ؟

فقلت :

يا أمير المؤمنين ، إن قلت لا كذبتُ المسلمين ، وإن قلت نعم
كذبتُ على نفسي بشيء لا يعلمه الله تعالى منى : فافعل أنت ما
ترى فإني غير منتصر لنفسي .

فقال المتوكل : هو رجل برىء مما قيل فيه .

فخرجت إلى العجوز ، فقلت لها: جزاك الله عنى خيراً... ففعلتُ
ما أمرتنى به ، فمَنْ أين لك هذا ؟
فقالت :

«من حيث خاطب به الهدهد سليمان عليه السلام» . . اهـ .
تريد بذلك ما قال الهدهد :

﴿ وَجِثُّكَ مِنْ سَبَأٍ نَبِيًّا يَقِينٌ ﴾ ^(١) أى : عن مشاهدة .
وتريد قول الهدهد :

﴿ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ﴾ ^(٢) .

بيد أن قصة هذه المحنة انتهت إلى كثير من الخير ، ولقد فصلها
بعض من كتب عن ذى النون من حيث خاتمها ، وذكر البعض ما لم
يذكره الآخرون ، ومن أجل ذلك نحب أن نذكر بعض ما ذكره :
روى أبو نعيم فى «الحلية» عن إبراهيم بن يحيى اليزيدى قال :
لما حُمِلَ ذُو النُّونِ إِلَى جَعْفَرِ الْمُتَوَكِّلِ أُنْزِلَهُ فِي بَعْضِ الدُّوَرِ وَأَوْصَى
بِهِ زُرَافَةَ .

(١ ، ٢) سورة النمل : ٢٢ .

وقال : إذا أنا رجعت غدًا من ركوبى فأخرج إلى هذا الرجل .
فقال له زرافة : إن أمير المؤمنين أوصانى بك .

فلما رجع من الغد ، قال له :

انظر بأن تستقبل أمير المؤمنين بالسلام .

فلما خرج إليه قال له : سلّم على أمير المؤمنين .

فقال ذو النون :

« ليس هكذا جاء الخبر .. إنما جاء فى الخبر أن الراكب يسلم

على الراحل » .

فتبسّم أمير المؤمنين وبدأه بالسلام ، فلما نزل قال له :

- أنت زاهد أهل مصر ؟

قال :

« كذا يقولون » .

فقال له زرافة : إن أمير المؤمنين يحب أن يسمع من كلام الزهاد ،

فأطرق ملياً ثم قال :

- « يا أمير المؤمنين إن لله عبادةً عبوده بخالص من السرّ ، فشرّفهم

بخالص من شكره ، فهم الذين تمرّ صحفهم مع الملائكة قرّعى ، حتى إذا

صارت إليه ملائها لهم من سرٍّ ما أسروا إليه .

أبدانهم دنيوية ، وقلوبهم سماوية ، قد احتوت قلوبهم من المعرفة

حتى كأنهم يعبدونه مع الملائكة بين تلك الفُرَج وأطباق السموات ، لم

يخبؤا فى ربيع الباطل ، ولم يرتعوا فى مصيف الآثام ، ونزّها الله أن

يراهم يتواثبون على حبائل المكر : هيبة منهم له ، وإجلالاً أن يراهم
يبيعون أخلاقهم بشيء لا يدوم ، وبكثرة من العيش مزهودة ، فأولئك
الذين أجلسهم على كراسي أهل المعرفة بالأدواء ، والنظر في منابت
الداء ، فقال لهم :

إِنْ أَتَاكُمْ عَليُّ مِنْ فُقْدَى فِدَاؤُودَ ، أَوْ مَرِيضٌ مِنْ ذِكْرَى فَاذْنُودَ ، أَوْ
نَاسٌ لِنَعْمَتِي فَذَكْرُودَ ، أَوْ مَبَارِزٌ لِي بِالْمَعَاصِي فَنَابِذُودَ ، أَوْ مَحَبٌّ لِي
فَوَاصِلُودَ . يَا أَوْلِيَايَ ، فَيَكُم عَاتِبْتُ ، وَلَكُم خَاطِبْتُ ، وَمَنْكُم الْوَفَاءُ طَلِبْتُ ،
وَلَا أَحِبُّ اسْتِخْدَامَ الْجَبَّارِينَ ، وَلَا تَوَلَّى الْمُتَكَبِّرِينَ ، وَلَا مَصَافَاةَ الْمُتَرْفِينَ ..
يَا أَوْلِيَايَ وَأَحِبَّائِي ، جَزَائِي لَكُمْ أَفْضَلُ الْجَزَاءِ ، وَإِعْطَائِي لَكُمْ أَفْضَلُ
الْعَطَاءِ ، وَبَذْلِي لَكُمْ أَفْضَلُ الْبَذْلِ ، وَفَضْلِي عَلَيْكُمْ أَوْفَرُ الْفَضْلِ ، وَمَعَامِلَتِي
لَكُمْ أَوْفَى الْمَعَامِلَةِ ، وَمَطَالِبَتِي لَكُمْ أَشَدَّ الْمَطَالِبَةِ . أَنَا مَقْدَسُ الْقُلُوبِ ، وَأَنَا
عَلَامُ الْغُيُوبِ ، وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَجَالِ الْفِكْرِ وَوَسَاوِسِ الصَّدُورِ ، مَنْ أَرَادَكُمْ
بِسُوءِ قِصْمَتِهِ ، وَمَنْ عَادَاكُمْ أَهْلَكَتُهُ .

ثم قال ذو النون :

« وَرَدَّتْ قُلُوبُهُمْ عَلَى بَحْرِ مَحَبَّتِهِ ، فَاعْتَرَفَتْ مِنْهُ رِيّاً مِنَ الشَّرَابِ ..
فَسَهَّلَ عَلَيْهَا كُلَّ عَارِضٍ عَرَضَ لَهَا دُونَ لِقَاءِ الْمَحْبُوبِ ، قَدْ سَكَنْتَ لَهُمُ
النَّفُوسَ ، وَرَضُوا بِالْفَقْرِ وَالْبُؤْسِ ، وَاطْمَأْنَنْتَ جِوَارِحَهُمْ عَلَى الدُّوُوبِ
عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ بِالْحَرَكَاتِ ، وَظَعَنْتَ أَنْفُسَهُمْ عَنِ الْمَطَاعِمِ وَالشَّهَوَاتِ .
فَقَتَلُوا بِالْفِكْرَةِ ، وَاعْتَقَدُوا الصَّبْرَ ، وَأَخَذُوا بِالرِّضَا ، وَلَهَوُا عَنِ الدُّنْيَا ،
وَأَقْرَأُوا بِالْعِبُودِيَّةِ لِلْمَلِكِ الدِّيَّانِ ، وَرَضُوا بِهِ دُونَ كُلِّ قَرِيبٍ وَحَبِيبٍ .

فخشعوا لهيبته ، وأقروا له بالتقصير ، وأنزعوا له بالطاعة ولم يبالوا بالقلّة .

إذا دخلوا فاهل تُقَى . وإذا عوملوا فإخوان حياء ، وإذا تكلموا فحكماء ، وإذا سئلوا فعلماء ، وإذا جُهل عليهم فحلّماء ، فلو رأيتهم لقلت : عَذَارَى فى الخدور ، قد تحركت لهم المحبة فى الصدور ، بحسن تلك الصور التى قد علاها النور . وإذا كشفت عن القلوب رأيت قلوباً لينة منكسرة وبالذكر نائرة وبمحادثة المحبوب عامرة . لا يشغلون قلوبهم بغيره ، ولا يميلون إلى ما دونه ، قد ملأت محبة الله صدورهم فليس يجدون لقرب المخلوقين شهوة . ولا بغير الأنس بمحادثة الله لذة ، إخوان صدق ، وأصحاب حياء ووقار ، وتُقَى وَوَرَعَ ، وإيمان ومعرفة ودين ، فاستقبلوا الوفاء بالصبر على لزوم الحق ، واستعانوا بالحق على الباطل ، فأوضح لهم الحُجّة ، ودلّهم على المَحَجّة ، فرفضوا طريق المهالك ، وسلّكوا خير المسالك ، أولئك هم الأوتاد الذين لهم تُوهب المواهب ، وبهم تُفتح الأبواب ، وبهم يُنشأ السحاب ، وبهم يُدفع العقاب والعذاب ، وبهم يُسقى العباد والبلاد .. فرحمة الله علينا وعليهم .

لقد سبق أن ذكرنا أن المتوكل بعد أن سمع كلام ذى النون قال :

« إن كان هؤلاء زنادقة فما على وجه الأرض مسلم . »

ويبدو أن المتوكل أخذ - بعد ذلك - يستدعى ذا النون ويسمع منه ، فصاحب «السر المكنون» يذكر قصة طويلة يطلب فيها المتوكل من ذى

النون أن يحدثه بأعجب ما رأى فى سياحاته ، ويحدثه ذو النون ،
ولعل من آثار ذى النون هذا السلوك الذى اتخذه المتوكل بالنسبة
لأهل السنة من إيقاف التنكيل بهم ، ومن اضطهادهم .
ومما لا شك فيه أن ذا النون أثر فى نفس المتوكل من هذا الجانب ،
لقد أثر فيها إلى درجة أن المتوكل كان إذا ذكر عنده أهل الورع يبكى
ويقول :

« إذا ذكر أهل الورع فحيَّهلاً بذى النون » .

إن المتوكل فى صلته الوثيقة بالمعتزلة لم ير فيهم هذا اللون من
العبودية لله ، والصلة به ، ومن الورع والزهد .
وما كان المعتزلة - فى يوم من الأيام - يتجهون هذا الاتجاه ، أو
يتحدثون بهذا الأسلوب المؤثر ، أو تبدو شخصيتهم فى هذه الصورة
التي ترى فيها قلوباً امتلأت بحب الله سبحانه . كلاً ، وإنما كانت
هذه الصورة كثيرة فى أهل السنة .

ومهما يكن من شيء ؛ فإنه قد آن الأوان لرجوع ذى النون إلى
مصر معززاً مكرماً .

ومر ذو النون بحاجب المتوكل ، هذا الرجل الذى عرف ذا النون
عن قرب ، فعرف عبادته وذكره وتسييحه ، ونحب أن نذكر هنا قصة
عن وداعه لذى النون ، يقول :

دخل على ذى النون ليودعنى ، فقلت له :

اكتب لى دعوة، ففعل، فقربت إليه جام لوزينج، فقلت له :
كُلْ من هذا فإنه ينفع الدماغ، وينفع العقل .
فقال :

« العقل يتفعله غير هذا ».

قلت : ما ينفعه ؟

قال :

« اتباع أمر الله والانتفاء عن نهيه ، أما علمت أن النبي ﷺ قال: « إِنَّمَا
الْعَاقِلُ مَنْ عَقَلَ عَنِ اللَّهِ أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ » .
فقلت له : أكرمنى بأكله .
قال :

« أريد ألدَّ من هذا ».

قلت : وأى شىء تريد .

فقال :

« هذا لمن لا يعرف الحلوى ، ولا يعرف أكلها ، وإن أهل معرفة الله
يتخذون خلاف هذا اللوزينج ».

قلت : لا أظن أحداً فى الدنيا يحسن أن يتخذ أجود من هذا، فإن
هذا من مطبخ أمير المؤمنين المتوكل على الله .
قال :

« خُذْ لبابَ مكنون محض طعام المعرفة ، واعجنه بماء الاجتهاد
..وطابق صفو الوداد ، ثم اخبز لوزينج العباد بحر نيرانِ نَفْسِ
الزهاد ، وأوقده بحطب الأسى .. » .

وهكذا أخذ ذو النون يحدثه بهذا الأسلوب المجازى عن مأكول
أهل الله ، حتى قال له :

« ثم كُلْ بأنامل التفويض ، فى ولائم المناجاة ، بوجودان خواطر
القلوب، فعند ذلك تفريج كرب القلوب ، ومحل سرور محب الملك
المحبوب ».

ثم ودّعنى وخرج ، رحمة الله عليه .

عاد ذو النون لمصر معززاً مكرماً ، ولعل من مقادير الله سبحانه
أن محنة ذى النون إنما كانت رسالة يؤديها إلى المتوكل الذى بدأ حياته
بعبادة أهل السنّة ، فلما أدى الرسالة ونصح للمتوكل انتهت مهمته
فى بغداد ، وعاد إلى مصر التى كان يهفو فؤاده إليها .

ولعل من تصرفات المقادير أن تكون هذه المحنة من الأسباب التى
تجعل حياة ذى النون حياة هادئة ، فإنه وقد عاد معززاً مكرماً من عند
الخليفة احترامه الوالى واحترمه غير الوالى ممن يسIRON فى اتجاهات
الخليفة ، يستخطون إذا سخط ، ويرضون إذا رضى .

أكانت محنة ؟ . . أم كانت - كما عبّر عنها ذو النون بقوله - :

« هذا مِنْ مَنَحِ الله وعطاياه ؟ » .
